١٩ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشي

ومهما يكن من أمر صاحب هذه القصيدة فان أبياتها تنضح بالوثنية، وأسلوبها يدل على ذلك ، كما أن أهميتها القصوى تتضح لنا من أنها أثارت جوته Goethe بعد أن قرأ ترجمتها باللاتينية فقام بطبع ترجمة لها بالألمانية مع نقد جميل للشعر في « الديوان الشرقي West-Oestricher Divan [1] »

وفي هذه القصيدة [2] نرى الشاعر يصور كيف يلج به الثأر لخاله الذي قتله هذلي ، ويصف بطولة القتيل وخلقه والغزوة التي قام بها وانتصاره (الشاعر) في النهاية على خصومه وظهوره عليهم فيقول :

إن بالشِّعب الذي عندَ سَلْعٍ ... لَقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ

خلفَ العِبءِ عليّ وولى ... أنا بالعبءِ له مستقل

ووراء الثأرِ مني ابنُ أخت ... مَصع عقدَتَهُ ما تُحَل

مُطرِق يَرْشح سَماً كما أطـ ... ـرقَ أفعَى يَرْشح السُّمَّ صِلّ

خَبَر ما نابَنَا مُضمَئِلٌ ... جلَّ حتى دقَّ فيه الأجل

بزَّني الدهرُ وكان غَشوماً ... بأبي جارُه ما يُذَل

شامس في القُرِّ حتى إذا ما ... ذَكَتِ الشِّعرَى فَبَرْد وظِل

يابسُ الجنبين من غير بؤس ... وندِي الكفين شهم مُدِل

ظاعن بالحزم حتى إذا ما ... حلَّ: حلَّ الحزمُ حيث يَحُل

غيثُ مزنٍ غامرٌ حيث يُجدِي ... وإذا يَسطو فليثُ أبل

مسبل في الحيِّ أحوَى رِفل ... وإذا يغزُو فسِمْع أزَل [1]

وله طعمان أرْى وشَرًى ... وكِلا الطعمَين قد ذاقَ كل

يركبُ الهولَ وحيداً ولا يَصـ ... ـحبُهُ إلا اليماني الأفَل

* * *

وفتوٌّ هجروا ثم أسْرَوْا ... ليلهم حتى إذا انْجابَ حلوا

كلُّ ماضٍ قد تردَّى بماضٍ ... كسَنا البرقِ إذا ما يُسل

فادَّرَكْنا الثأرَ منهم ولمَّا ... ينجُ مِ الحيَّين إلا الأقلُّ

فاحتَسوا أنفاسَ نوم فلمَّا ... هوَّموا رُعْتُهم فاشمَعلُّوا [2]

فلَئِنْ فَلَّتْ هُذَيل شَباهُ ... لبما كان هذيلاً يَفِلُّ

وبما أدرَكَها في مَناخٍ ... جَعْجَعٍ ينقُبُ فيه الأضَل

وبما صبَّحَها في ذُراها ... منهُ بعدَ القتلِ نَهب وشَل

* * *

صلِيَتْ مني هُذيل بخرْقٍ ... لا يَمِل الشرَّ حتى يَمَلوا

يُنهِلُ الصَّعْدَةَ حتى إذا ما ... نهلَتْ ، كانَ لها منهُ عَل

حلتِ الخمرُ وكانت حراماً ... وبلأيٍ ما ألمَّتْ تحلّ

---

(١) مما جاء في كتاب تراث الاسلام (الطبعة العربية اكتوبر ١٩٢٦) في الفصل الذي كتبه الأستاذ جب عن الأدب العربي قوله « وليس للأدب الفرق هنديا كان أم عربيا أم فارسيا أن يشغل في تاريخ الأدب الالماني في القرن التاسع عشر حيزا لم يشغله مثله من قبل في أوربا منذ عهدها بالأدب الإسباني في القرون الوسطى وكان أول الزهر وأينعه في روضة الغرب كتاب جوته : West oslecher Divan ، (ص ٢٠٨ س ٢ – ٨) المترجم

(٢) ذكر المؤلف قبل هذا كلاما ضربنا صفحا عن ترجمته لانه يشرح فيه لقراء الانكليزية ما صادفه من صعوبة في التوفيق بين البحر المديد الذي اتبعه الشاعر العربي وبين البحر الانكليزي الذي ترجمه به الاستاذ نيكلسون القصيدة ليكون قريبا منه في روحه وموسيقاه . (المترجم)

(١) الرفل : الواسع الثوب الكثير اللحم ، والسمع ولد الذئب (المترجم)

(٢) أي أسرعوا في الهرب

فاسقنيها ياسوادَ ابنِ عمرو إن جسمى بعد خالى لخَلِ (١)
تضحكُ الضبعُ لقتلى هُذيل وترى الذيب لها يستهل
وعِتاقُ الطيرِ تغدو بطاناً تتخطاهم فما تستقل (٢)

* * *

ولم تكن الفضائل التى استوعبها العربى عن الشرف معدودة كأنها صفات شخصية فطرية أو مكتسبة ، بل إرثاً ورثه الخلف عن السلف منذ القدم ، ولا بد له من أن يحافظ عليه تماماً حتى يسلمه إلى أبنائه دون أن تشوبه شائبة مّا ، ولم يكن الأمل ، فى الخطوة يخلود النفس هو ما يحفز الشاعر العربى لأن « يقول القول ويفعل فعال الشرف » ، بل كان الرغبة فى أن يقاسم أسلافه ذكرهم ، وينافسهم صيتهم ، وهو بهذا أبعد ما يكون عن الفلاح الاسكتلندى ، حين يقول فى مثله الدارج « الانسان بشخصه أيّا كان أصله » لأنه كان ينظر نظرة الشك والريبة إلى هذه الجدارة التى ليس لها أصل مأثور عند الآباء :

وما تَستَوِى أحسابُ قومٍ تُوُرِّثَت
قديماً وأحسابٌ نَبَتْنَ مع البقلِ (٣)

وإن الحسب عندهم أشبه بحصن حصين قد جد فى إقامته الآباء للأبناء أو كجبل شامخ يضرب بقنته فى أجواز الفضاء ، يرتد عنه مهاجموه بالفشل دون أن ينالوا منه شيئاً (٤) ، وكان الشعراء يعرفون جيداً المفاخر والمثالب ، فيتشدقون بالأولى بشرف أجدادهم وكرم أرومتهم ، ويتخذون الثانية أداة ينالون بها من أعدائهم دون رعاية أو اهتمام بقواعد الأدب والحشمة .

* * *

لقد وجهت عنايتى أن أورد فى هذا المجال بعض الصفات الخاصة للشعر للعربى إذا ما قورن بالشعر العبرى أو الفارسى أو الانكليزى ، ولكن لما كان إيراد الأمثال ذا جدوى غير منكورة فإنى أبدأ حالا بالتكلم عن القصائد الشهيرة بالمعلقات

(١) كان من عادة العربى إذا قُتل له قتيل ألا يشرب الخمر أو يمس النساء حتى يثأر له .
(٢) الحماسة ص ٢٨٢ وما يليها .
(٣) الحماسة ٦٧٩
(٤) قارن هذا بما سيرد بعد قليل فى معلقة الحارث التى تحتل مكانة سامية ، وذروة رفيعة فى الأدب العربى

* * *

الأرجح أن كلمة معلقة (١) قد اشتقت من قولهم « علق » أى الشىء النفيس الثمين العالى المستوى . إما لأن الانسان يتعلق بها تعلقا شديدا ، أولأنها تعلق فى مكان شريف أو بين واضح كبيوت المال أو فى خزائن عامة (٢) ، وعلى مر الزمن تنوسى المدلول الحقيقى لكلمة معلقة ، وأصبح من الضرورى ايجاد تفسير مقبول منصوب لها . وهنا ظهرت الخرافة التى أصبحت فيما بعد مألوفة لطول تكرارها . وكثرة استعمالها ، والتى تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم ، راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقديرا لفضلها الذى قضى لها به المحكمون فى عكاظ على مقربة من مكة ؛ حيث يجتمع الشعراء متنافسين فى انشاد أروع ما دبجته قرائحهم ، وأنها كانت تكتب بماء الذهب ، على القباطى (٣) الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة .

« يتبع »

حسن عيسى

(١) إن أحسن طبعة للمعلقات هى تلك التى نشرها سيرشارلز ليل سنة ١٨٩٤ (طبعة كلكتا) وسماها A Commentary on Ten Ancient Arabic Poems وهى تشمل إلى جانب المعلقات السبع المتفق عليها ثلاثة قصائد أخريات للأعشى والنابغة الذبيانى وعبيد بن الأبرص ، كما ترجم تلك خمس معلقات (سقطا مسلقتى امرىء القيس وطرفة) . وأرفق بها شرحا بالالمانية فى Sitzungsbevichte der kais. Akad. Der Wissenschaften in Wien, Philo. Histor. Klasse, Vols: 140-144 (1899-1901).
وتلك إلى حد بعيد أمتع ترجمة للباحثين والطلاب ، وليست هناك فى النثر الانكليزى أية ترجمة ممتعة ، ولكنى أشير على القارىء بمراجعة الترجمة الشعرية الانكليزية التى بلغت الغاية فى الجمال والروعة وإن يكن فيها شىء قليل من التصرف وهى التى نظمتها لادى أن بلنت Anne Blant وسير ولفرد سكاون بلنت وسماها : The LevenGolden Odes of Pagan Arabia (London 1903)

(٢) راجع مقدمة سير شارلز ليل لكتابه An Cient Arabian Poetry وقد اقترحت عدة تفسيرات أخرى نحو « القصائد التى كتبت بالاملاء الشفهى » كما يقول فون كريمر ، أو « الدرر فى المذهبات » كما يسميها أهلوارت ، أو « الاسماط » كما لو كانت لآلىء مدلات من قلائد كما يدعوها أوجست موللير

(٣) يظهر أن الاعتقاد بأن المعلقات قد كتبت بماء الذهب ناشىء عن الخطأ فى فهم اسم « المذهبات » (بسكون الذال وفتح الهاء) أو المذهبات (بفتح الذال وتشديد الهاء المفتوحة) أى القصائد المكتوبة بالذهب ، وهو الاسم الذى يطلق عليها أحيانا نظرا لفخامتها ، كما هو الحال عند الأغريق الذين أطلقوا اسم « خرايسا أى » Khrousia Epi على قصيدة تنسب زورا إلى قيثاغورس أما القول بأن بعضا من المعلقات قد أنشد فى سوق عكاظ فهذا أقلب ما يحتمل بل ماقد تأكد يثبوته بشأن ما كان من معلقة عمرو بن كلثوم (الأغانى ج٩ ص٢٢)